

التسامح الدينى فى ظل الإدارة الإسلامية للقدس

دكتور محمد صابر إبراهيم عرب

أستاذ للتاريخ الحديث - جامعة الأزهر

تتناول هذه الدراسة وضع الأقليات الدينية فى مدينة بيت المقدس فى ظل الحكم الإسلامى . وتعرض فى البداية لمكانة المدينة المقدسة فى الديانات الثلاث (الإسلام والمسيحية واليهودية) ، ثم أبرزت بشكل خاص مكانتها فى القرآن الكريم والسنة النبوية وتراث الفقهاء والمحققين والجغرافيين والرحالة . وقدمت الدراسة تعريفا جغرافيا تاريخيا للمدينة العظيمة وتميزها الحضارى والثقافى والتاريخى ، الذى أهلها لكى تكون لها خصوصية المدن العملاقة ، حيث أبرزها القزوينى بقوله " ما فيها من موضع شبر إلا صلى فيه نبي أو أقام فيه ملك " .

ثم حاولت تتبع الملامح الأساسية التى صنعت من مدينة بيت المقدس عالماً زاهراً بالثقافات الدينية المتباينة ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت بيئة إسلامية خالصة ، منذ أن فتحها الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ، الذى يرجع إليه الفضل فى تحديد العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة وفقاً لرؤية إسلامية دقيقة استمدتها الخليفة عمر من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، واتسمت بفهم صحيح لروح الإسلام مما كان له أكبر الأثر فى طمأننة أهل الذمة بعد أن راحوا يقارنون بين أوضاعهم التى كفلها الإسلام ، والتى أتاحت لهم حرية لم تتح لنظرائهم من المسيحيين واليهود فى الدول الأوروبية وقتئذ ، مما أتاح للكثيرين منهم حرية اختيار الإسلام دون ضغط أو إكراه.

ثم تتبّع الدراسة (بما يتناسب وحجم البحث) علاقة أهل الذمة فى بيت المقدس بالدولة الإسلامية اعتمادا على حقائق تاريخية تناولتها مصادر التاريخ الإسلامى وبعض المصادر المسيحية واليهودية وكلها تشيد بما تميز به المجتمع الإسلامى فى القدس من تسامح دينى لا يعتمد على مزاج الحكام أو الخلفاء ، وإنما يعتمد أولا وقبل كل شئ على ما كفله الإسلام لأهل الذمة من ضمانات صانته حقوقهم واحترمت آدميتهم وضمنت لهم حرية ممارسة عباداتهم دون ضغط أو إكراه .

وكان من المناسب أن أتناول ما قيل من أن اضطهادا قد وقع على أهل الذمة ولذا فقد حاولت تحقيق هذا الموضوع ودراسته دراسة علمية استنادا إلى الحقائق التاريخية أحيانا وعلى المفاهيم الدينية الصحيحة فى كثير من الأحيان ، ثم أبرزت الكثير من المقارنات بين وضع الأقليات الدينية فى القدس وبين وضع المسيحيين أو اليهود أنفسهم فى أنحاء الدول الأوروبية التى خضعت لتوجيهات الكنيسة وفرضت على الناس فكرا كنسيا معينا ، مما أدى إلى ما يعرف فى التاريخ الأوروبى بالتدهور الكنسى .

ولما كانت الحركة العلمية فى بيت المقدس تعد مظهرا رائعا للحرية التى كفلها الإسلام ، لذا فقد تعرضت هذه الدراسة لوضع علماء أهل الذمة فى الحركة العلمية ، واللافت للنظر أن العلماء من اليهود والنصارى قد برزوا فى العصرين الأيوبرى والمملوكى أكثر من أى عصور تاريخية أخرى ، وأن الإدارة الإسلامية قد أتاحت لهم ما لعلماء المسلمين من امتيازات حفرتهم على النتائج العلمى تأليفا وتحقيقا ودراسة .

ثم أفرّدت هذه الدراسة بنوع من التاصيل حالة اليهود والنصارى فى بيت المقدس منتبجة أنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية التى تشير فى كل مراحل التاريخ الإسلامى إلى أنهم تمتعوا بكل الحقوق التى كفلها الإسلام وفقا لقواعد ثابتة فى الفقه الإسلامى .

ولما كانت المقارنة هى حجة قوية لكل من روج لما يسمى بالاضطهاد التاريخى ، فقد تعرضت لوضع المسلمين واليهود حينما سقطت الأندلس والإبادة الجماعية التى تبنتها ومولتها الكنيسة الكاثوليكية تحت رعاية إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وأبرزت حالة اليهود خصوصا .

ولقد تم تناول كل ذلك بالاعتماد على مصادر أصلية من خلال أعمال المنهج العلمي الدقيق، وهى محاولة نرجو أن تكون مفيدة تقديرا لمكانة القدس فى نفوسنا جميعا، والتي نود أن يفك أسرها قريبا بإذن الله.

تعايش المسلمين وأهل الذمة فى القدس فى ظل الحكم الإسلامى

لمدينة القدس فى الإسلام مكانة عظيمة تتبع من تقدير الرسول صلى الله عليه وسلم لها وحلوله فى أرضها وارتباطه بالمسجد الأقصى المبارك قبلة المسلمين الأولى ، الذى بناه يعقوب ، ثم جده داود وأتمه سليمان عليهم السلام .

وفى الصحيحين عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع على الأرض ، فقال : "المسجد الحرام ، قلت ثم أى ، قال : المسجد الأقصى ، قلت : وكم بينهما قال : أربعون عاما ، ثم الأرض لك مسجدا فحيثما أدركتك الصلاة فصل فيه ، فإن الفضل فيه" .

وتعد مدينة القدس فى مقدمة المدن التى احتوت قدرا عظيما من المقدسات الدينية بحكم كونها موطن كثير من الأنبياء والرسل ، ويقول عنها القزوينى " أنها المدينة التى كانت محل الأنبياء وقبلة الشرائط ومهبط الوحي ، وما فيها من موضع شبر إلا وصلى فيه نبي أو قام فيه ملك " ^١.

والسنة النبوية حافلة بما للمسجد الأقصى من مكانة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى" .

وقد أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وفى ذلك نزلت الآية الكريمة " سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ... " .

^١ آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٥٩

ويروى ابن الجوزى "أن كثيرا من المحدثين يجمعون على أن الله عز وجل منذ خلق آدم إلى الدنيا لم يبعث نبيا إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس ، وقد صلى إليها نبينا صلى الله عليه وسلم"^٢.

من أجل ذلك فقد كانت القدس دوما محط آمال المسلمين وموضع رعايتهم ومحور اهتمامهم ، لذلك كان الموسرون من المسلمين على مر الأجيال يتنافسون فى إنشاء المساجد فيها والزوايا والتكايا بالرباطات ودور العلم والمستشفيات فى وقفيات لا يزال الكثير منها مسجلا فى سجلات المحكمة الشرعية بالقدس^٣.

ويكفى هذه المدينة العظيمة فخرا أن ضمت كثيرا من مقدسات الأديان السماوية الثلاثة ، فقد شهدت أرضها آثارا لموسى وعيسى ومحمدا عليهم السلام ، مما أهّل تلك المدينة لكى تؤدى دورا حضاريا عظيما . وقد عنى المؤرخون والجغرافيون والرحالة بهذه المدينة المقدسة وأفاضوا فى إبراز مصادر قوتها وعظمتها ، وكانت قمة المعرفة التاريخية والجغرافية هو التعرف على شخصية المدينة ، الذى يعد محصلة طبيعية لموقعها وتراثها وتاريخها الممتد عبر الزمان ، وهو النتاج الطبيعى لتفرد القدس وتميزها الحضارى والثقافى والتاريخى.

ومن خلال تتبع الدور الحضارى والتاريخى أمكن التعرف على خصوصية القدس ، التى افتقدت قدرا من المقومات الطبيعية للمدن التقليدية ، فلا هى تقع على مجرى مائى عظيم ، ولا هى ميناء ، إلا أن أراضيها بركانية ، صالحة للزراعة ، التى تعد عنصرا أساسيا لقيام الحضارة قديما وحديثا .

وإذا كانت القدس قد افتقدت بعض المقومات الطبيعية التى تؤهلها لكى تلعب دورا عبقرى فى الحضارة باستثناء جودة أرضها واعتدال مناخها ، إلا أن مكانتها الدينية الضاربة فى أعماق التاريخ قد أهلتها لكى يكون لها خصوصية المدن العملاقة ذات التأثير الحضارى ، الذى اتسم بلامح دينية متميزة .

^٢ فضائل القدس ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١١٤ .

^٣ اسحق موسى الحسينى ، مكانة بيت المقدس فى الإسلام ، بحث منشور ضمن مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ، المؤتمر الرابع لمجمع البحوث ، ١٩٦٨ ، ص ٦٧ .

لقد ارتبط بيت المقدس فى تراثنا الإسلامى ، منذ صدر التاريخ ، بقدر هائل من الاهتمام لدرجة أنه ينذر أن تجد محدثاً أو فقيهاً أو مؤرخاً لم تشغل القدس مساحة هامة من كتاباته ، وبنفس القدر عنى الأوروبيون منذ انتشار المسيحية والاعتراف بها فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، حيث صار فى وسع المسيحيين فى مختلف الأقطار أن يرتحلوا إلى الأرض المقدسة ، وأصبحت زيارة القدس من أهم شعائرهم الدينية ، ففيها بيت لحم ، حيث ولد عيسى عليه السلام ، وما يقال عن وجود قبر مريم عليها السلام . وفى العصور الوسطى تعاضم دور الكنيسة الغربية (الكاثوليكية) لدرجة أنها حرصت على فرض سيطرتها على القدس ، وعلى ضم أبناء الكنيسة الشرقية لنفوذها ، واتخذت من الحروب الصليبية وسيلة لتحقيق أطماعها هذه حتى تم استيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، وظلت تحت حكم الصليبيين حتى استردها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م عقب موقعة حطين الشهيرة .

وفى ضوء المبادئ الإسلامية النبيلة وهدى الدين القيم وأهدافه السامية وعلى أساس من إقامة ميزان العدل وإشاعة الحرية والمساواة ورفع مشعل الهداية جاء الفتح الإسلامى لبيت المقدس مرتين ، مرة فى أيام عمر بن الخطاب ، والأخرى فى أيام صلاح الدين الأيوبي .

وفى خلافة عمر بن الخطاب كانت إيلياء (بيت المقدس) هى الحضارة الكبرى لفلسطين ، وقد تولى فتحها عمرو بن العاص ، فحاصر المدينة ، ولما طال الحصار على أهلها طلبوا الصلح على شرط أن يكون المتولى لعقده عمر بن الخطاب ، فكاتبهم عمر وكتب لهم كتاباً أمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم وعقائدهم ، وتأتى رسالة عمر إلى أمراء الشام نموذجاً للتسامح الدينى والسلوك الحضارى الراقى ، فلا تهدم كنائسهم ولا يكرهون على دينهم "ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن شاء قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ولا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم "٤، وشهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعوية بن

٤ تاريخ ابن جرير الطبرى ، ج ٣ ، ص ١٠٥ ، خطط الشام ، ج ١ ، ص ١١٨ .

أبى سفيان ، كما قطع أهل ايلياء على أنفسهم عهدا تضمن كثيرا من المبادئ التى حددت طبيعة العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة عموما .

بعد أن قدم عمر صورة حقيقية للإسلام من خلال اتفاقه مع أهل ايلياء ، الذى يعد صورة رائعة لعدالة الإسلام وكريم معاملته ، مضى إلى بيت المقدس حتى دخل كنيسة القيامة ، ولما حان وقت الصلاة قال للبطريرك : أريد الصلاة ، فأشار عليه البطريرك (صفرוניوس) أن يصلى داخل الكنيسة ، ولكن عمر خشى أن يتخذ المسلمون صلاته فى داخل الكنيسة ذريعة فيضعوا أيديهم عليها ، ولذا فقد صلى على مقربة منها ، وقيل أن ذلك كان سببا كافيا لطمأنة البطريرك .

ثم زار عمر مكان الهيكل ولاحظ أن الأقدار قد تجمعت عليه فراح يحمل التراب بكفيه وتبعه الصحابة ، إلى أن برزت الصخرة التى كلم الله عليها يعقوب وأمر ببناء المسجد عليها (٦٣٧م) .

وبينما عمر يتفقد المدينة ويبحث شئونها أتاه رجل من النصارى له ذمة مع المسلمين فى كرم عنب ، فشكا إليه همه وعندما استوثق عمر من أن المسلمين قد أكلوا ما فى الكرم أثناء الفتح لشدة ما أصابهم من جوع ، أعطى الرجل ثمن ما أكلوه ، وقد أمر رجاله بالعدل قائلا لهم قوله الشهيرة " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا " .

وهكذا أصبحت القدس فى كنف الإسلام ورحابه نموذجا للعدل والسماحة حيث التعايش السلمى بين جميع الطوائف فى مبادئ أساسية اتسمت بالعدل والرحمة ، مما دفع سكان ايلياء إلى التسابق فى معرفة الإسلام العظيم ، وهكذا كانت سياسة عمر سببا هاما من أسباب دخول أهل الشام عموما إلى الإسلام .

وفى سنة ٢١هـ / ٦٤١م ضمت القدس إلى الشام وخضعت لحكم معاوية بن أبى سفيان الذى كان واليا على الشام^٥ .

^٥ لما مات عبد الرحمن بن علقمة الكناني ، وكان عاملا فى فلسطين ، ضم عمله إلى معاوية ٢١هـ / ٦٤١ م . ثم أصبح حاكما مطلقا على الشام ومصر والعراق والحجاز ، وبويع بالخلافة ٤١هـ / ٦٦١ م .

وفى عهد عبد الملك بن مروان أنشئت قبة الصخرة وهى بناء من الحجر فوق الصخرة المقدسة يقع وسط بيت المقدس ، وقد شرع فى تشييده ٦٦هـ / ٦٨٥م ثم أعاد بناء المسجد الأقصى وهما من أعظم آثار بنى أمية فى فلسطين ، ويقال أن عبد الملك بن مروان أراد أن يصرف الناس عن التفكير بالسفر إلى الحجاز^٦ وأن يشغلهم عن الكعبة ببناء هذا الأثر العظيم ، وهو قول لا يحمل قدرا من الحقيقة لأن الكعبة ليست مجرد بناء وإنما يرجع اهتمام المسلمين بها لأسباب دينية وليست لمجرد كونها بناء معماريا ، وهذا المعنى البسيط لا يمكن أن يغيب عن عبد الملك بن مروان .

وتشير مصادر التاريخ الأموى إلى أن عبد الملك بن مروان كان يثق فى النصارى إلى درجة أنه استخدمهم فى المسجد الأقصى وسمح لهم بتوارث الخدمة فيه^٧.

وإذا كان عبد الملك بن مروان قد بنى المسجدين المعروفين بمسجد الصخرة والمسجد الأقصى ، إلا أن إطلاق اسم المسجد الأقصى على ما دار عليه السور والأبواب هو الذى كان معروفا عند الإسراء والمعراج^٨.

وحينما خضعت القدس للعباسيين ٧٥٠م عنى العباسيون بالمسجد الأقصى واستخدموا فى وظائف الإدارة كثيرا من غير المسلمين . وتشير مصادر العصر العباسى إلى أن هارون الرشيد قد عامل النصارى معاملة كريمة ، وسمح للإمبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء ، ولعل العلاقة بين شارلمان وهارون الرشيد قد توطدت لدرجة أنه أهدى شارلمان ساعة ومنزلا وأقمشة نفيسة وتعهد بحماية الحجاج المسيحيين الذين يفدون لزيارة القدس . وكان شارلمان يبعث كل عام بوفد إلى القدس يحمل الهدايا إلى الخليفة والأموال لفقراء المسلمين ، وفى إحدى المرات قدم الوفد مفاتيح كنيسة القيامة والقبور المقدسة^٩ تعبيرا عن التسامح الدينى الذى تجسدت كل معانيه فى سلوك كثير من حكام القدس .

^٦ بعد أن استقل بها ابن الزبير وأعلن الخروج على عبد الملك بن مروان .

^٧ محبى الدين ، الأئس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ، نقلا عن عارف العارف ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢ .

^٨ إسحاق موسى الحسينى ، مكانة بيت المقدس فى الإسلام ، المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية ، ص ٨٢ .

^٩ عارف العارف ، تاريخ القدس ، ص ٥٥ .

وفى أواخر العصر العباسى زار القدس العالم المعروف (برنارد الحكيم) ووصفها وصفا دقيقا فقال " إن المسلمين والمسيحيين فيها على تفاهم تام وأن الأمن العام مستتب للغاية حتى أن المسافر ليلاً يفرض عليه أن تكون بيده وثيقة تثبت هويته وإلا زج فى السجن حتى يحقق فى أمره ، وإذا سافرت من بلد إلى بلد ونفق جملى أو حمارى وتركت أمتعتى مكانها وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شئ على حاله لم تمسه يد "١٠ .

والواقع أن ثمة حقيقة أساسية وهى أنه إذا كانت الحضارة العربية الإسلامية ، وهى باعتراف الباحثين أعظم حضارة شهدتها العالم أجمع خلال فترة العصور الوسطى ، فإن السر فى ازدهارها إنما يرجع إلى روح التسامح التى عرف بها الإسلام والمسلمون ، ولسنا فى حاجة إلى الإشارة إلى أن الإسلام أوصى بأهل الكتاب من المسيحيين واليهود خيرا ، وأن الله أمر خاتم أنبيائه محمدا عليه الصلاة والسلام بأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة " **فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ احْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ** "١١ .

وبمثل هذه الروح الطيبة فتح المسلمون أبواب بلادهم أمام اليهود ليدخلوا آمنين ويتنقلوا بين ربوعها سالمين وسمحوا لهم بممارسة نشاطهم الخاص والعام على أوسع نطاق وأباحوا لهم التتلمذ على أيديهم والأخذ عنهم وأجازوا لهم الكثير من المهام والأعمال والمناصب الرسمية وغير الرسمية فصار منهم التجار والصيارفة والأطباء والوزراء .

ولا أدل على تسامح المسلمين مع اليهود من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم فى بيت المقدس فى الوقت الذى أمرت الكنيسة فى غرب أوروبا بتحطيم هياكل اليهود وإهدار دمهم .

لعل الوصف الدقيق لمدينة القدس فى عهد الفاطميين ودرجة تسامحهم نجده فى (سفر نامة) للسائح المشهور (ناصرى خسرو) فقد زارها ١٠٤٧م ووصفها قائلا "يحج

١٠ نفس المرجع السابق ، ص ٥٨ .

١١ سورة آل عمران : ٢٠ .

سكان البلاد المجاورة للقدس ويشعبون فيها رغباتهم الدينية ويتقربون إلى الله بجميع أنواع الصلاة والعبادة"^{١٢}.

والقراءة المنصفة لتاريخ الصراع الإسلامي الصليبي تعطى انطباعاً دقيقاً عن التسامح الإسلامي ، فها هو صلاح الدين الأيوبي بعد أن حقق انتصاراً ساحقاً على الصليبيين في حطين ٥٨٣هـ / ١١٨٧م يقبل اتفاقية الرملة ٥٨٧هـ / ١١٩١م حقناً للدماء ، ومما يسترعى الانتباه مقدار التسامح والعفو ، حيث أطلق سراح اليتامي والشيوخ والأرامل من الصليبيين دون دفع الفدية ، إضافة إلى أنه منحهم مساعدات مالية من ماله الخاص .

ومما يسترعى النظر أيضاً أنه اكتفى بأن أخذ فدية رمزية قدرها عشرة دنانير من بطريك بيت المقدس وتركه يغادر المدينة حاملاً ما استطاع حمله من الذهب والفضة ومن خلفه العربات تحمل النفائس التي كانت بالكنيسة وقد رفض صلاح الدين أن يتعرض لما حمله البطريك وقال " لا أعدر به " ، وبهذا يظهر الفرق بين المعاملة الإنسانية الكريمة وبين معاملة الصليبيين حين سقطت بيت المقدس في أيديهم سنة ١٠٩٩م وما فعلوه من تقتيل وتخريب وتدمير .

وتشير مصادر التاريخ الأيوبي إلى أن القدس في عصر صلاح الدين قد شهدت قدراً عظيماً من التسامح أتاح لساكنيها من غير المسلمين الفرصة لممارسة أنشطتهم اليومية بحرية مطلقة ، مما أتاح الفرصة لصلاح الدين لكي يعنى بالخدمات العامة وإنشاء "البيمارستان"^{١٣} .

وسواء أكان صلاح الدين هو أول من أنشأ "البيمارستان" في القدس أو أنه كان قائماً منذ عصر الفاطميين إلا أنه من الثابت أن صلاح الدين قد عنى به واستقدم إليه الأطباء من دمشق والقاهرة كما جدد سور مدينة القدس وأقام عدداً من الأبراج الحديثة وكثيراً ما قام بنفسه بمشاركة العمال في نقل الحجارة وأعمال البناء .

^{١٢} عارف العارف ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٥ .

^{١٣} كارل بركلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي ، ص ٣٦٠ .

وإذا كان المسلمون قد تعاملوا مع أهل الذمة بقدر عظيم من التسامح أملتة قيم الإسلام وتعاليمه ، إلا أن الصليبيين حينما استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ وظلت تحت وطأتهم زهاء قرن من الزمان قتلوا من أهلها خلقاً كثيراً^{١٤} وانتهكوا محارمها وكانوا لا يطلقون أسيراً إلا بفدية ولم يحفظوا جميل المسلمين الذين صانوا آثار أهل الكتاب صيانتهم لآثارهم^{١٥} .

وفى نهاية العصر الأيوبي تفاقم الصراع بين البيت الأيوبي لدرجة أنه استجد بعضهم بالصليبيين ضد البعض الآخر^{١٦} ، وانقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة مما أغرى الصليبيين بالهجوم على مصر ، ويروى أحد المؤرخين المعاصرين (ابن واصل) أن الحملة الصليبية الخامسة ٦١٤هـ / ١٢١٨م كانت تستهدف مصر باعتبارها الدعامة الأساسية مما يسهل مهمة احتلال القدس وكل ساحل بلاد الشام^{١٧} .

وإذا كانت مصر هذه المرة قد جاءت هدفاً صليبياً مباشراً باعتبارها الدرع الواقى للشرق الإسلامى إلا أن الجيش الصليبي بأجمعه تقريباً قد وقع بين أسرى وقتلى وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه وقد سيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن فى دار القاضى ابن لقمان^{١٨} .

وفى العصر المملوكى ووفقاً لرواية ابن حجر القيشندى وعلى وجه التحديد ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م فى زمن السلطان الأشرف شعبان بن حسين أصبحت القدس إدارة مستقلة بذاتها بعد أن كانت تابعة لدمشق^{١٩} .

ولعل السلطان الأشرف قد أدرك أهمية بيت المقدس بحكم مكانتها الدينية والتاريخية ونظراً للأطماع الصليبية فيها ونظراً لتعدد ديانات سكانها وتنوع جنسياتهم ولما لها من دلالة

^{١٤} ابن سرور ، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام ، يافا ، ١٩٤٦ ، ص ٦٢ .

^{١٥} تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ٣٢٢ .

^{١٦} د. على السيد على ، القدس فى العصر المملوكى ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ٢٢ .

^{١٧} ابن واصل . مفرج الكرب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الشبل ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ج ٢ . ص ٢٥٨ .

^{١٨} المقرئى ، كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٦ .

^{١٩} أنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق د. حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ط ١ ، ص ١٠٧ ، صبح الأعشى ج ١٢ ،

ص ١٠٥ .

خاصة فى ذهن الأوربيين ، ولذا فقد اختير لإدارتها الأمير شهاب الدين ، وتشير المصادر إلى أن الرجل كان صاحب همة وعدل وعلم وكان موضع احترام وتقدير سكان بيت المقدس^{٢٠} .

ويصعب فهم قرار المماليك باستقلالية القدس كنيابة مستقلة تابعة مباشرة للسلطان فى القاهرة إلا فى ضوء طبيعة الصراع الإسلامى المسيحى خلال تلك الفترة من العصور الوسطى حيث راحت الدول الأوربية تتسابق فيما بينها نحو إحياء مشروع الحروب الصليبية والإعلان صراحة عن نيتهم فى احتلال القدس على اعتبار أن ذلك هدفا دينيا وسياسيا مشتركا .

وهكذا لم تتوقف الأطماع الصليبية نحو القدس وخصوصاً بعد أن تولى (لوزينان) عرش قبرص ١١٩٢ ، ومنذ ذلك التاريخ غدت قبرص حجر الزاوية فى الحروب الصليبية لدرجة أن بطرس الأول ملك قبرص (١٣٥٩ - ١٣٦٩) أعد طائفة أطلق عليها "طائفة السيف" بهدف تخليص الأرض المقدسة من قبضة المسلمين وفى عهده تمت الحملة الشهيرة على مدينة الإسكندرية ١٢٦٥ بهدف الاستيلاء على مصر وتحطيم قوتها تمهيدا للإجهاد على القوى الإسلامية العربية فى الشرق الأدنى واسترجاع بيت المقدس^{٢١} .

ويعصور القلقشندى خطورة الأطماع الصليبية من خلال رسالة بعث بها صاحب غرناطة (السلطان عبد الله بن أبى الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر) إلى السلطان الأشرف (شعبان بن حسين) يقول فى رسالته " اتصل بنا ما دامت الروم المكيدة التى كان دفاع الله من دونها سدا والملائنة جندا والعصمة سورا والروح الأمين مددا منصورا وأنها استنفدت الوسع فى احتشادها حتى ضاقت اللجج عن أعوادها حتى غص كافر البحر بكفارها ، يصبح بهم التأليب ويدمرهم الصليب وقد سول لهم الشيطان ثغر الإسكندرية شجا صدورهم ومرمى آمال غرورهم ، ويسيموا سيوف التغلب على الشام ويحولوا بين

^{٢٠} عبد الرحمن سعيد ، بيت المقدس فى عهد المماليك ، ماجستير غير منشورة من كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ،

١٩٧٩ ، ص ٧٧ .

^{٢١} د. على السيد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥ .

المسلمين وبين محط أوزارهم وحجم مزارهم وبيت ربهم الذى يتصدونه من كل فج عميق^{٢٢} .

والحقيقة أن هذه النزعة العدوانية الصليبية كانت فى مقدمة العوامل التى دفعت بأسبانيا ، التى اتحدت من خلال زواج فرديناند وايزابيلا ، بهدف تطويق العالم الإسلامى تحت مسمى الكشف الجغرافى ، وكان الطابع الدينى المتعصب يغلب على سياسة هذين الملكين الكاثوليكين ، وكانا قد شنا حرباً لا هوادة فيها بهدف الإجهاز على البقية الباقية من المسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا كما كانا يمنيان النفس ببعث عهد الحروب الصليبية وإنفاذ حملة صليبية لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين^{٢٣} .

وعلى ضوء كل ما سبق يمكن تفسير سياسة الممالك نحو القدس ، سواء فى استقلالها عن دمشق إدارياً وجعلها تابعة للسلطان مباشرة فى القاهرة أو بتتمة مواردها والعناية بمقدساتها .

وعموماً فقد حظى نصارى بيت المقدس بالرعاية الكاملة وكفلت لهم الدولة الإسلامية الحرية المطلقة فى ممارسة عقائدهم الدينية وأنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية ، وقد عنى بهم سلاطين الممالك لدرجة أن رئاسة بطريرك السريان كان يصدر بها مرسوم من السلطان فى القاهرة ، وأعفوا من الرسوم المفروضة على زائرى كنيسة القيامة والتوصية عليهم بالإحسان لهم ومعاملتهم معاملة حسنة^{٢٤} ، وفى عهد السلطان برسباى استمرت هذه الامتيازات .

أما طائفة الأرمن فكانت من أنشط الطوائف فى بيت المقدس وكان لهم أملاك وأديرة أمنتها لهم الإدارة المملوكية التى تعهدت برفع الظلم عنهم ورعايتهم لدرجة أن هذه الطائفة قد حصلت على وثيقة من السلطان "جقمق" نص فيها "مرسوم مولانا السلطان الملك الظاهر أبو محمد سعيد جقمق عز نصره بإبطال ما أحدثه أبو الخير بن النحاس من

^{٢٢} نفس المرجع السابق ، ص ٣٥ ، ص ٣٦ .

^{٢٣} د. عبد العزيز محمد التناوى ، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، ص ١٠٤ .

^{٢٤} عبد الرحمن سعيد حمودة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٣ .

ضمان ما يعقوب دير الأرمن بالقدس الشريف عاماً رده سيف الدين المقر الشرقى
الأنصارى وسأل فى إيطال ذلك ليسطر فى الصحائف الشريفة بتاريخ ٨٥٠هـ .

ولعل الروم كانوا ينازعون الأرمن فى حقهم بهذا الدير وكان إقرار السلطان بعودة
الدير إلى الأرمن مصدر سعادة كبيرة لهم لدرجة أنهم علقوا هذه الوثيقة على أحد جدران
أديرتهم بالقدس .

وتشير سجلات المحكمة الشرعية فى بيت المقدس إلى أن القاضى نظر فى شكوى
قدمها إليه بطريك الأرمن الذى حكم بحقهم فى الدير بعد أن استمع إلى شهادات رؤساء
الطوائف الأخرى كالقبط والحبش والسريان^{٢٥} .

لقد سكن بيت المقدس الروم الأرثوذكس ، وقد شملتهم سماحة الإسلام كغيرهم من
الطوائف الأخرى وقد اكتسب وجودهم شكلاً شرعياً من خلال مراسيم سلطانية تحافظ
عليهم وترعى حقوقهم وتوصى بهم خيراً . وقد حدد محمد بن قلاوون هذه المزايا من
خلال عدة مراسيم لعل من أهمها "لا أحد يتعرض إلى ديرهم ولا لكنائسهم ولا لشئ من
أراضيهم"^{٢٦} .

ولم يقتصر الأمر على عناية السلاطين المماليك بالطوائف القاطنة بمدينة القدس فقط
وإنما شملوا برعايتهم زوار مدينة القدس من المسيحيين واليهود وكثيراً ما نص فى وثائق
رسمية على التعهد بحمايتهم وتوفير أسباب الراحة لهم .

وكثيراً ما ترد فى مصادر العصرين الفاطمى والمملوكى بعض التجاوزات سواء فى
القدس أو القاهرة أو دمشق ، ولا عبرة إطلاقاً بأن يلجأ رجل عرف بشذوذه الذهنى - مثل
الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى - إلى اضطهاد الذميين من مسيحيين ويهود فى فترة
محدودة من حكمه ، ذلك أن حاكماً يحرم على شعبه أكل السمك والملوخية ويأمر بكتابة
سب الصحابة على أبواب المساجد ، لا يمكن أن يكون طبيعياً ولا تعتبر تصرفاته بأى
حال من الأحوال مرآة لروح الإسلام .

^{٢٥} نفس المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

^{٢٦} نفس المرجع السابق .

وإن كانت قد حدثت موجات من الاضطهاد لأهل الذمة في عصر سلاطين المماليك فإنه ينبغي أن نقدر روح العصر (عصر الحروب الصليبية) وطبيعة المماليك أنفسهم وحادثة عهدهم بالإسلام وعدم تشربهم بروحه بالقدر الكافي^{٢٧}.

وإذا كانت قد حدثت بعض الحالات الفردية من اضطهاد أهل الذمة فلا يمكن أن يكون ذلك اتجاها عاما بل الأساس أن أهل الذمة قد عاشوا في القدس وفي غيرها من العواصم الإسلامية أكثر أمانا واستقرارا من بلادهم خلال فترة العصور الوسطى ، وتأتى جماعة الرهبان الفرنسيسكان ٦١٦هـ / ١٢١٩م التى أسسها فرانسيس الأسيزى وأقام بجماعته على جبل صهيون^{٢٨} ، وسمح لهم السلطان الكامل بالانفراج للعبادة ، ثم تمكنت هذه الجماعة من توسيع نشاطها حيث بنت ديرا على الجبل المسمى بدير صهيون بمعاونة صقلية ونابلى حيث توسط حاكم هاتين المدينتين لدى السلطات المملوكية التى استجابت لهذه الضغوط تقديرا منها لأهمية تحسين العلاقات الإسلامية الأوربية .

وعموما فقد عاش أهل الذمة فى القدس كما فى غيرها من الأمصار الإسلامية فى مناخ اتسم بالتسامح والحرية لدرجة أن الرحالة اليهودى إسحاق بن يوسف (١٣٣٣) يعترف صراحة بأن اليهود فى القدس يعيشون فى طمأنينة وسعادة ، وأرجع ذلك إلى عدل الحكومات الإسلامية^{٢٩}.

واللافت للنظر أن أهل الذمة من سكان بيت المقدس لم ينفلقوا على أنفسهم ولم يعيشوا على حافة المجتمع خلال العصور الإسلامية المختلفة ، مما يفسر بروز العديد منهم فى مجال العلوم المختلفة ، حيث أتاحت لهم الدولة الإسلامية جوا من الحرية العلمية لم تتح لنظرائهم فى أوروبا ، فبينما كان العمل بالطب فى روما أو باريس أو لندن خلال العصور الوسطى يعد هرطقة تبرر للكنيسة حق إراقة دم من يعمل بتلك المهن بحجة أن ذلك يدخل فى أخص خصوصيات الرب ، وبموجب هذا الفهم العقيم قتل مئات من العلماء فى كل مجالات العلم حيث أعدموا حرقا بعد أن اتهمتهم الكنيسة بالهرطقة .

^{٢٧} د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، اليهود فى العصور الوسطى بين الشرق والغرب ، كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥٤ .

^{٢٨} مجيد الدين الحنبلى ، الأُس الجليل ، ج٢ ، ص ٢٤٩ ، ص ٣٥٠ .

^{٢٩} نقولا زيادة ، رواد الشرق فى العصور الوسطى ، ص ١١٠ ، ص ١١١ .

وبينما كان ذلك يحدث فى المدن الأوربية ، كان المسيحيون واليهود من سكان القدس يمارسون الطب والفلك والرياضيات . ويروى الرحالة اليهودى الأسبانى إسحاق بن شيلو (١٣٣٣) "أن من يهود القدس كان هناك من يعمل بالفلك والرياضيات . ولكن معظمهم كانوا يدرسون القانون"^{٣٠} .

كما وجد أطباء مسيحيون فى القدس كانوا يقومون بممارسة مهنة الطب وبعضهم كان ينقطع لمعالجة أبناء طائفته وإن طائفة الفرنسيسكان كانوا يخصصون أطباء لمعالجة أبناء طائفتهم وكانوا يمدونهم بالأدوية^{٣١} .

كل ذلك كان يحدث فى كنف الإدارة الإسلامية للقدس فى الوقت الذى كان فيه المسلمون واليهود فى أسبانيا يتعرضون للإبادة الجماعية التى باركتها الكنيسة الكاثوليكية التى اعتبرت أن استئصال المسلمين واليهود من أوروبا مسألة دينية خالصة ، ولذلك فإن الشعور الذى احتوى مسيحى شبه جزيرة إيبيريا بوجوب محاربة الإسلام كان شعورا امتزجت فيه الروح الصليبية المتأججة العنيفة بالعاطفة الوطنية ، وأصدر البابا نيقولا الخامس ١٤٤٧ - ١٤٥٥ مرسوما بابويا تضمن ما يعرف باسم "خطة الهند" تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوربا الكاثوليكية للقضاء قضاء مبرما على الإسلام والمسلمين^{٣٢} .

ويذكر البلاذرى "أن معاوية بن أبى سفيان ما كاد يستولى على طرابلس حتى جلب إليها اليهود وأسكنهم فيها"^{٣٣} ، وخلال العصور الإسلامية المتعاقبة نعم أهل الذمة بكل حقوق المواطنة حتى أن بنيامين اليهودى قد قدر عدد اليهود فى القرن الثانى عشر للميلاد (السادس الهجرى) بثلاثمائة ألف يهودى فى المشرق الإسلامى وحده على حين قدرهم يهودى آخر فى نفس القرن بستمائة ألف فى العراق وحده^{٣٤} .

^{٣٠} د. على السيد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٠ .

^{٣١} نفس المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

^{٣٢} د. عبد العزيز محمد الشناوى ، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٩١ .

^{٣٣} البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٢٧ .

^{٣٤} د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، اليهود فى العصور الوسطى بين الشرق والغرب ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٥ .

وتشير مصادر العصرين الأيوبي والمملوكي إلى أن اليهود قد وفدوا على القدس من أنحاء أوروبا ، وشهدت مدينة القدس خلال هذين العصرين نشاطا علميا ملحوظا قام به اليهودي الشهير موسى بن نحمان وهو الذي أحيا طائفة اليهود المعلمين في القدس وبني مركزا خاصا لتعليم اليهود وبني المعبد الذي يحمل اسمه ، إضافة إلى ما يعرف بالأكاديمية اليهودية في القدس والتي تخصصت في تعليم اليهود^{٣٥} وخصوصا في مجال الدراسات اليهودية .

وفي الوقت الذي سقطت فيه غرناطة ١٤٩٢ آخر معاقل المسلمين في الأندلس لم يجد يهود الأندلس إلا البلاد الإسلامية ملاذا من الإبادة الجماعية ، وكانت القدس واحدة من المدن الإسلامية التي وفد إليها يهود الأندلس واستقروا على أرضها وأمنوا على أنفسهم في ظل سماحة الإسلام . ولعل قدرا كبيرا من التحسن قد طرأ على أوضاع اليهود في القدس عموما نتيجة لهجرة يهود الأندلس إليها لأن المهاجرين الجدد لم يجلبوا معهم الثقافة المزدخرة فحسب بل أيضا الثراء ، وسرعان ما احتل هؤلاء (السفارديم) مكانة ممتازة في الحياة العامة بحكم ثقافتهم الرفيعة التي اكتسبوها من الأندلس^{٣٦} .

وعلى الرغم من روح التسامح الديني الذي اتسمت به المدن الإسلامية إلا أن اليهود قد لازمهم الخيانة لدرجة أنهم قبلوا أن يكونوا أدلاء لطلائع الاستعمار الجديد الذي اتخذ من الكشوف الجغرافية وسيلة لتحقيق أهدافه نحو القضاء على الإسلام والمسلمين .

وقد سعى البرتغاليون منذ طلائع الكشوف الجغرافية الأولى للحصول على علوم الحرب الملاحية واستعانوا بالتجار اليهود في الأندلس ، الذين قبلوا أن يقوموا بدور الجواسيس في الحصول على معلومات العرب البحرية ، وساعد اليهود على نجاحهم في عمليات التجسس معرفتهم باللغة العربية وقاموا برحلات بين المشرق والمغرب برا وبحرا لهذا الغرض وتظاهروا بأنهم مسلمين ، وقد تتابع وصولهم إلى مصر وسائر البلاد العربية منذ ١٤٨٨ (أي قبل رحلة فاسكو دي جاما) بعشر سنوات ، وتخفى اليهود في زى تجار برتغاليين وسافروا إلى مصر وكان على رأس هؤلاء الجواسيس الفونسو دي

^{٣٥} د. صابر دياب ، دراسات في عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى ، ص ٦٣ .

^{٣٦} د. علي السيد علي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

بايفنا Alfonso de Paiva وبيرو دى كوفيلهام Pero de Covilham ، ووقف الجواسيس على معلومات هامة ثم ألقوا من السويس إلى عدن ومنها إلى الهند ثم عادوا إلى البرتغال عن طريق مصر ، وفى أثناء مرورهم بالقاهرة التقى هؤلاء ببعثة تجسس يهودية أخرى برئاسة ابراهيم دى بيا ويبدو أنها كانت تحمل تعليمات جديدة من حكومة البرتغال لأن البعثتين الأولى والثانية انضمتا بعضهما إلى بعض فى بعثة واحدة سافرت إلى هرمز ثم إلى زيلع ومنها إلى الحبشة ثم عادت إلى مصر وواصلت سفرها فى رحلة العودة إلى البرتغال .

وقد استطاعت هذه البعثة الحصول على خرائط عربية عن المحيط الهندى ومعلومات تفصيلية عن التيارات البحرية والرياح الموسمية فى هذا المحيط فضلا عن البيانات الخاصة بالتجارة الشرقية ، وقدمت البعثة كل هذه المعلومات إلى سلطات لشبونة فكانت لهم نعم المعين ابتغاء تحقيق الهدف الأساسى وهو الوصول بحرا إلى الهند .

وخير مثال يمكن أن نسوقه كدليل على ما لقيه اليهود فى ظل الحكم الإسلامى من تسامح وأمن واستقرار وما تعرضوا له على أيدى المسيحيين فى العصور الوسطى من اضطهاد ، أن مدن الشام التى كانت بها جاليات ضخمة من اليهود تحت حكم المسلمين قد أصبحت تقفر منهم بعد استيلاء الصليبيين عليها .

ويقول بنيامين " أنه لم يبق فى بيت المقدس بعد استيلاء الصليبيين عليها سوى أربعة من اليهود فى حين كان فى مدينة صور تسعة فقط " . لذلك لا عجب إذا هلك اليهود عندما سمعوا باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م ، وذكر الشاعر اليهودى الأسبانى يهودا الحرزى " أن فتح صلاح الدين لبيت المقدس أعقبته هجرة عدد كبير من اليهود إليها " ^{٣٧} .

والتاريخ الإسلامى حافل بالعديد من الحكام العظام الذين شملوا برعايتهم أهل الذمة ووفروا لهم من الأمن والاستقرار ما سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية وأنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية بداية من الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ومرورا بالقائد الفاتح

^{٣٧} د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، اليهود فى العصور الوسطى ، دراسة مقارنة بين الشرق والغرب ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٧ .

صلاح الدين الأيوبي ، ولذا فقد تضاعف عدد اليهود خلال القرن الثامن عشر حيث اجتذبهم الشرق الإسلامي ، فكان بهمزان ثلاثين ألفا وبأصفهان خمسة عشر ألفا وبشيراز عشرة آلاف وبسمرقند ثلاثون ألفا وهذه الأرقام التي يذكرها بنيامين اليهودي يؤكد أنها المقدسة في القرن الرابع الهجري ، فيقول " إن بخراسان يهودا كثيرين ونصارى قليلين وأن بالجبل يهوداً أكثر من النصارى ، بل قد وجدت مدينتان في المشرق الإسلامي أطلق عليهما اسم اليهودية إحداهما قرب أصفهان والأخرى شرقي مرو كذلك كان لليهود نسبة كبيرة في مدينة قرح ذات الأهمية التجارية المعروفة ^{٣٨} .

وفي كثير من المدن الإسلامية نجد أحياء تنسب إلى اليهود في القاهرة وبغداد والقدس ، وتذكر أقدم المصادر التاريخية عن القدس (الأنس الجليل) "أنه كان في حارة اليهود ببيت المقدس مسجد مجاور لكنيسة اليهود وبجوار المسجد دار من جملة أوقاف اليهود انهدمت بسبب المطر فرغب المسلمون في الاستيلاء عليها مما حمل اليهود على رفع الأمر لقضاة بيت المقدس ، الذين حكموا بحق اليهود فيها" ^{٣٩} .

لعل هذا التسامح الذي لم تحكمه اعتبارات شخصية أو مزاجية وإنما حكمته أسس دينية وأخلاقية يعد دليلاً على ما كان للإسلام من فضل ، إضافة إلى ما تمتع به القضاء الإسلامي من فهم دقيق لجوهر الإسلام .

لقد نعمت الطوائف الدينية بقدر هائل من الحرية التي كفلتها سماحة الإسلام ، فمع قيام الدولة الفاطمية في مصر والشام تمتع اليهود بحرية كاملة من خلال طوائفهم وأصبح لكل طائفة رئيس مستقل فصار لليهود في القاهرة والقدس وكافة المدن التابعة للفاطميين رؤساء وصار لليهود غوما رئيس مستقل لقب بأمير الأمراء وخولت إليه مهمة تعيين أئمة اليهود في مصر والشام وكتب له توقيع برئاسة سائر الفرق اليهودية في جميع أنحاء مصر والشام ^{٤٠} .

^{٣٨} المقدس ، أحسن التقاسيم ، ص ٨٣ ، ص ٩٥ ، ص ٣٩٤ .

^{٣٩} مجيد الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ، ص ٣١٨ .

^{٤٠} آدم ميتز ، الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٦٣ ، د. سعيد عاشور ، اليهود في العصور الوسطى بين الشرق والغرب ، ص ٣٥٧ .

وفى ظل التسامح الإسلامى الذى يعبر عن جوهر الإسلام تمتع اليهود بحرية واسعة فى مباشرة نشاطهم الاقتصادى فاحتكروا التجارة بين الشرق والغرب ، واتخذوا من المدن الإسلامية فى شرق البحر المتوسط نقاط ارتكاز أساسية حيث باشروا مهامهم مع المدن الأوربية فى جنوب فرنسا وإيطاليا ، وقد أطلق المسلمون عليهم اسم اليهود الرازانية نسبة إلى الرون (وادی الرون فى جنوب فرنسا) وأحيانا أطلقوا عليهم تجار البحر فترسوا سفنهم المحملة بالفراء والجلود والغلمان على شاطئى الفرما ومنها يحملون بضائعهم إلى القلزم ثم يستأنفون رحلتهم إلى الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر وأحيانا كانوا يتجهون إلى إنطاكية بدلا من الفرما ومنها إلى بغداد فالطريق البرى إلى الهند والصين ثم يعودون محملين ببضائع الشرق كالحرير والتوابل والمسك^{٤١} .

وما من مركز تجارى فى العالم إلا كانت به جالية ضخمة من اليهود تسيطر على النشاط المالى فيه ، وفى بيت المقدس احتكر اليهود تجارة الأصباغ فى حين اشتغل يهود الأندلس بخصى الرقيق الصقالبة^{٤٢} .

وتجدر الإشارة إلى أن التواجد اليهودى فى بيت المقدس قد نشأ إما لأغراض دينية أو هروبا من الاضطهاد الدينى فى أوروبا وخصوصا اليهود (السفرديم) الذين قدموا من أسبانيا ، ومما يستلفت النظر أيضا أن هؤلاء جميعا لم يكونوا من نسل يهود التوراة ولكنهم جميعا من سلالة الأوربيين .

ولم يكن حق التوطن وممارسة كافة النشاط الاقتصادى هما كل ما حظى به اليهود من حقوق وإنما كانت لهم امتيازات فى ظل الحكم الإسلامى بلغت من تسامح المسلمين لدرجة أن استخدموا اليهود فى وظائف الدولة وسمحوا لهم بتقليد أسمى الوظائف وأرقاها وعلى أرسها وظيفة الوزارة ، وظهر منهم فى العصر الفاطمى يعقوب بن كلس الذى لجأ إلى مصر حيث تاجر لكافور الإخشيدى ثم استوزره المعز لدين الله الفاطمى ، ويقال إنه

^{٤١} ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ١٥٣ .

^{٤٢} د. سعيد عاشور ، اليهود فى العصور الوسطى بين الشرق والغرب ، ص ٣٥٨ .

هو الذى أشار عليه بفتح مصر ، وبالرغم من اعتناقه الإسلام إلا أنه ظل متحيزا لإخوانه اليهود ومع ذلك فقد كان المعز لا يفعل شيئا إلا بمشورته^{٤٣}.

أما الخليفة العزيز الفاطمى فقد استوزر عيسى بن نسطوروس النصرانى وأناب عنه فى حكم الشام يهوديا اسمه منشأ واعتمد عليهما أهل الذمة وأنزلوا أضرارا كبير بالمسلمين . ويقال أن أهل مصر عندما ضاق بهم الحال كتبوا رقعة وجعلوها فى يد صورة امرأة عملوها من الورق وثبتوا الصورة فى طريق العزيز والرقعة فى يدها وفيها "بالذى أعز اليهود بمنشأ بن إبراهيم الفرار والنصارى بعيسى بن نسطوروس وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظالمتى"^{٤٤}.

وفى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى ولى الوزارة يهوديا آخر هو أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى وعلى الرغم من أنه أعلن إسلامه إلا أنه أشرك معه فى تدبير شئون الدولة يهوديا آخر هو أبو سعد التستري وقد أثار التستري كراهية المسلمين لتعصبه لليهود وإسناده مناصب الدولة إليهم مما مكنهم من اضطهاد المسلمين^{٤٥}.

ولم يقتصر الأمر على مصر فقد استوزر ملكشاه السلجوقى لنفسه أمين الدولة أبا الحسن بن غزال وهو طبيب يهودى وجد عنده بعد موته ثلاثة ملايين قطعة من الذهب فضلا عن التحف والجواهر التى لا يوجد مثلها عند الخلفاء .

وفى المغرب اتخذ باديس بن حبوس بن زيرى ملك غرناطة (٤٣٠ - ٤٦٦هـ) أحد اليهود وهو بن نغزالة وزبرا واتخذ يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المتوفى ٧٠٦ هـ وحفيده أبى الربيع سليمان (٧١٠هـ) حاجبا يهوديا يدعى خليفة بن حيون بن قاصة^{٤٦} .

ولقد شهدت الدولة الإسلامية خلال عصورها المزدهرة أسماء أطباء من أهل الذمة حظوا بشهرة كبيرة وأباح لهم المسلمون مزاوله مهنتهم ، وبعضهم اختير طبيبا خاصا

^{٤٣} المرجع السابق ، ص ٣٥٨ ، ص ٣٥٩ .

^{٤٤} ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٨١ ، ص ٨٢ .

^{٤٥} د. سعيد عاشور ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٩ .

^{٤٦} نفس المرجع السابق .

للخليفة مثل الملك العادل الأيوبي الذي جعل يعقوب بن صقلان المتوفى سنة ٦٢٦ هـ طبيباً خاصاً له فكان الملك العادل إذا احتاجه استدعاه اليه في محفة يحملها الرجال^{٤٧} .

وعموماً فإن اليهود قد نعموا في ظل الحكم الإسلامي بكل حقوق المواطنة ، وبينما أحسن المسلمون لليهود في الأندلس وأكرمواهم وسمحوا لهم بتلقي العلم في المساجد ، إذا بالحكام المسيحيين (بعد زوال الدولة الإسلامية في الأندلس) يحرقون اليهود بالجملة من خلال المحارق التي ابتدعها الحكام الأسبان التي سموها بأفراح الموت حيث يلقي اليهود أحياء وسط تهليل وصياح جموع النصاري ، لكن تجربة المسلمين مع اليهود كانت دائماً مريرة قاسية ، إذ كان اليهود يقابلون الوفاء بالغدر ، والإحسان بالكران ، لذلك أخذ المسلمون في العصور الوسطى يتخوفون من السفر مع اليهود خوفاً من خديعتهم . وقد روى أن مسلماً سافر مع يهودي فسأله المسلم ما يفعل ؟ فقال اليهودي : إنه يمشي حيث يكون ظل دابة المسلم واقياً رأسه على الدوام^{٤٨} .

وعلى الرغم من أن صلاح الدين أكرم اليهود إلا أنه اكتشف مؤامرة للقضاء على حكمه في مصر والشام عن طريق الاتصال بالصليبيين وتولى كتابة الرسائل إليهم أحد اليهود بمصر ، وعندما دخل المغول الوثنيون حلب ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م تواطأ معهم اليهود ضد المسلمين فهدموا المساجد وخربوها ، ويعد معبد اليهود في حلب أحد الأماكن التي لاذ إليها الفارون من المذابح^{٤٩} .

وعموماً فقد عاش أهل الذمة في بيت المقدس عيشة كريمة مطمئنة ، وإذا كان قد حدث تجاوز في بعض فترات التاريخ فهو الاستثناء الذي لا يقاس عليه ، ويشهد بذلك كثير من الرحالة الأجانب الذين زاروا بيت المقدس خلال العصور الثلاثة (الأيوبي والمملوكي والعثماني) ، والذين أشادوا بعزل الإسلام وسماحته والحرية التي كفلها الإسلام لكل المقيمين في القدس بما في ذلك اليهود والنصارى . ويروى الأب سوريانو أنه في عهد السلطان قايتباي تمتعت طائفة الفرنسيكان بعطف السلطان نفسه لدرجة أنهم حينما

^{٤٧} ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٤٤٣ .

^{٤٨} د. سعيد عاشور ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦١ .

^{٤٩} أبو الفدا ، المختصر في تاريخ البشر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

شكوا إليه من كثرة الأموال التي يجبيها منهم حاكم بيت المقدس غضب السلطان وأحضره مكبلاً بالحديد وعزله وألقاه في السجن مدة خمس سنوات ، وعندما شكا إليه رئيس الفرنسيسكان من أن هناك من يحاول الإساءة إليهم بعث السلطان بمن أحضرهم وعاقبهم عقاباً شديداً وفرضت عليهم غرامات ^{٥٠} .

والحقيقة أن سماحه الإسلام وعدله قد شملت كل قاطنى بيت المقدس بما فيهم المسيحيون واليهود مما أوجد مناخاً ثقافياً واجتماعياً عظيماً ، حدث هذا بينما كانت البابوية فى أوروبا قد سيطرت على كل مناحى الحياة مما كان سبباً فى اضمحلال المدن الزاهرة وأغلقت المدارس وانتشرت الجهالة ، ولم يبق أثر للحضارة والعلم والثقافة فى أوروبا الغربية إلا بصيص خافت ينبعث من المؤسسات الدينية الجديدة مثل المدارس الديرية والمدارس الأسقفية ، كما أن بعض البابوات كانوا لا يشجعون سوى الدراسات الدينية المسيحية ويحاربون ما عداها ، هذا فى الوقت الذى كان فيه المسلمون يمضون قدماً فى إقامة بنىان حضارى شامخ ويضربون أروع الأمثلة فى حرية الفكر وتشجيع البحوث وسرعة التطور ، وكانت مدينة بيت المقدس واحدة من المدن الإسلامية العملاقة التى احتوت كل عناصر سكانها وهذبهم الإسلام بسماحته ورحابة صدره ولم تعرف المدن الإسلامية التعصب بكل أنواعه مما حفز الجميع نحو بناء حضارى شامخ .

لقد شهدت مدينة القدس سبقاً حضارياً هائلاً فى كل مجالات المعرفة وسُمح لأهل الذمة بالمشاركة الفعالة فكان منهم الأطباء والفلكيون ، حتى الحرف الصغيرة كان لهم نصيب كبير فيها ، كل ذلك فى إطار من التسامح والمحبة .

وليس أدل على التسامح من أن طائفة الرهبان الفرنسيسكان سُمح لهم بتجديد كنيستهم كما سُمح لهم بتجديد كنيسة القبر المقدس ، وسُمح السلطان الغورى ببناء دير لهم فى الرملة وسمح لكل الطوائف بإقامة مدارس لأبنائها ، وتعددت المكتبات لدى الطوائف المسيحية المختلفة بالقدس تعدداً تشهد عليه كثرة تلك المكتبات من جهة وكثرة ما احتوته من ذخائر الكتب من جهة أخرى ^{٥١} .

^{٥٠} عيد الحميد زايد ، القدس الخالدة ، ص ٢٦٠ .

^{٥١} د . على السيد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٠ .

ولعل ذلك يعكس عناية الطوائف الدينية بالمكتبات التي أقيمت فى الكنائس والأديرة إضافة إلى الحرية العلمية التي أتاحها المجتمع الإسلامى فى القدس لعلماء تلك الطوائف الذين انصرفوا للتأليف ونسخ المخطوطات . وقد تنافست الطوائف الدينية فيما بينها عناية بالكتب والمخطوطات لدرجة أن طائفة كاليعاقبة قد حرصت على جمع ما يمكن جمعه من كنوز المعرفة وأعدوا مكاناً لعرض تلك الكتب وتقديمها للقراء تشجيعاً منهم للحركة العلمية المزدهرة فى القدس^{٥٢} .

ويذكر أحد الحجاج المسيحيين الذين زاروا بيت المقدس فى عهد سلاطين المماليك أن كنيسة القديسة مريم بجوار كنيسة القبر المقدس كان بها مكتبة رائعة وأن مكتبة القبر المقدس التى أنشأها الروم الأرثوذكس كانت زاخرة بكافة المعارف الإسلامية والمسيحية^{٥٣} .

والحقيقة أن مدينة بيت المقدس كانت مؤهلة منذ فتحها المسلمون لكى تلعب دوراً حضارياً متميزاً فهى مدينة جاذبة بحكم المقدسات الدينية بها ولمكانتها فى كل الأديان ، لذا فقد وفد عليها أناس استهواهم هذا الزخم التراثى الرائع . وبصرف النظر عن مراحل التصادم بين المسلمين والمسيحيين بهدف الانفراد بتلك المدينة المقدسة إلا أن ذلك كله قد خلف وراءه تراثاً حضارياً وإنسانياً رائعاً ، ومن ثم تميزت مدينة بيت المقدس بتنوع علاقاتها مع كثير من المراكز الحضارية الأخرى ، ولعل مدينة القاهرة تأتى فى مقدمة المدن التى كان لها خصوصية شديدة مع بيت المقدس تضمنتها حركة التاريخ وعمق التفاعل من خلال نضال طويل مشترك .

لقد كان الأزهر الشريف عاملاً حيويًا وفعالاً فى تجسيد هذه العلاقة ، فمنذ تأسيس الأزهر والعلماء بين المدينتين يترددون فى حركة من التواصل والتفاعل المستمر بين القاهرة والقدس ، ويندر أن نجد عالماً أو فقيهاً فى بيت المقدس لم يدرس فى الأزهر الشريف أو يستمع الدرس على أحد علمائه ، بل أن كثير من المدارس والمعاهد العلمية فى بيت المقدس قد تأثرت بنظام الدراسة فى الأزهر .

^{٥٢} نفس المرجع السابق ، ص ١٧١ .

^{٥٣} الأوكس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٣٤ .

والمتتبع لسيرة معظم من شغلوا وظيفة التدريس فى كثير من المعاهد العلمية فى القدس يلاحظ أنهم إما متخرجون من الأزهر أو تتلمذوا على يد من تخرج من الأزهر ، كما أن كثيراً من علماء بيت المقدس رحلوا إلى القاهرة وبعضهم قد عمل بالتدريس فى الأزهر ومنهم بدر الدين بن جماعة الذى تولى قضاء مصر زمن السلطان خليل بن قلاوون ٦٩٠ هـ / ١٢٩٠ م وأضيفت إليه مهمة الخطابة فى الجامع الأزهر^{٥٤} ، والشيخ شهاب الدين بن جبارة الحنبلى الذى درس فى الأزهر وتخصص فى القراءات والأصول وعمل بالتدريس فى الأزهر وبيت المقدس إلى أن توفى ٧٢٨ هـ ، وقاضى القضاة شمس الدين أبو عبد الله الخالدى الذى تولى قضاء مصر وأصبح شيخاً للمدرسة المؤيدية بباب زويلة فى القاهرة ثم عاد إلى بيت المقدس ومات فيها ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م^{٥٥} .

أما القاهرة فقد بقيت دوماً الصرح الحضارى والثقافى الذى أمد القدس بكل مقومات نهضتها العلمية ، وكان الأزهر هو المعين الذى لا ينضب ، فقد ظل التواصل من خلال علماء الأزهر الذين ذهبوا إلى بيت المقدس للتدريس والقضاء وأحياناً الخطابة فى المسجد الأقصى وكان من هؤلاء الشيخ شهاب الدين أبو العباس المصرى^{٥٦} ، والعالم (أبو البقاء) أحمد الزبيرى الذى انتقل إلى بيت المقدس سنة ٧٣٠ هـ / ١٤٢٦ م وتوفى فى بيت المقدس سنة ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م^{٥٧} ، وشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى الأصل المصرى المولد والمنشأ وهو من بين العلماء الذين تردوا على القدس وعمل بالتدريس فيها ما بين أخريات القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى واشتهر بالتدريس والفتيا^{٥٨} .

وعموماً فإنه من الصعوبة بمكان أن نترجم لكل من ساهم فى حركة التواصل العلمى والثقافى بين القاهرة والقدس ، لكن الترجمة العلمية لعلماء القاهرة والقدس بداية من العصور الإسلامية الأولى وحتى وقوع القدس تحت الاحتلال الاسرائيلى تدل على أن

^{٥٤} المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، القسم الثالث ، ص ٧٧١ .

^{٥٥} نفس المصدر السابق ، ج ٤ ، القسم الأول ، ص ٣٥٥ .

^{٥٦} مجيد الدين الحنبلى . الأئس الجليل ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

^{٥٧} السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٩ ، ص ٢٨٩ .

^{٥٨} د. على السيد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٣ .

معظمهم قد تأثر بالآخر بشكل أو بآخر مما أوجد نوعاً من التكامل العلمى والحضارى بين هاتين المدينتين العملاقتين .

وتشير إحدى الدراسات إلى أن نصارى بيت المقدس قد أدركوا أهمية كسب ود العثمانيين منذ أن فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية ، ولعل بطريرك القدس قد أدرك طموحات العثمانيين فى الشرق الاسلامى فى الوقت الذى كانت فيه دولة المماليك تنذر بنهايتها ، ولذا فقد قام بزيارة سرية إلى السلطان العثمانى هناك فيها على فتح القسطنطينية ، وتمكن البطريرك من الحصول على عهد بالأمان ، حيث تعهد السلطان العثمانى استناداً إلى العهد الذى حصل عليه النصارى من الخليفة عمر بن الخطاب بأن تكون كنيسة القيامة ملكاً خالصاً للنصارى وكل المزارات المقدسة مثل مار يعقوب ودير الكرج والكنائس الواقعة فى حوزة البطريرك وكنيسة المسيح الكائنة فى بيت لحم وأن تعفى كل الطوائف الخاضعة للبطريرك من الخراج والكفارة وجميع الرسوم ، وفى هذه الوثيقة أيضاً يتعهد السلطان العثمانى بحماية البطريرك وأتباعه (٨٦٢هـ / ١٤٥٤ م)^{٥٩}.

والقراءة العلمية الدقيقة لمثل هذه الوثيقة والتاريخ الذى كتبت فيه يقطعان بعدم صحة مثل هذا وخصوصاً وأن سنة ١٤٥٤ هو التاريخ الذى كتبت فيه هذه الوثيقة حيث كانت العلاقات المملوكية العثمانية على أحسن ما يكون ولم يكن هناك ما يشير إلى أطماع العثمانيين فى الدولة المملوكية ، إضافة إلى أن السلطان العثمانى لا يمكن أن يقطع على نفسه عهداً بمجرد أن البطريرك قد طلب منه ذلك والمصادر العثمانية والمملوكية لم تشر إلى مثل هذا الاتفاق ولم يرد هذا النص إلا فيما كتبه (إبراهيم قزاقيا) .

وعموماً فإن نهاية دولة المماليك ووقوع الشام تحت سيطرة العثمانيين (١٥١٦) لم يترتب عليه تغيير ملحوظ لمدينة بيت المقدس سواء فى وضعها الإدارى أو لوضع الأقليات الدينية فيها ، على الرغم مما شهده العصر العثمانى من تدفق ملحوظ من جانب الأوربيين وخصوصاً بلاد الشام التى شهدت قدوم الأجانب من جانب وتنازل الدولة العثمانية عن كثير من حقوقها فى شكل امتيازات منحت لهؤلاء الأجانب .

^{٥٩} إبراهيم قزاقيا ، تاريخ الكنيسة الرسولية ، ص ٨٨ ، ص ٨٩ .

لم تكن هذه الامتيازات خطراً على الدولة وهى فى عفوان قوتها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أما بعد ذلك فقد تحولت هذه الامتيازات إلى حقوق اكتسبت شرعيتها تحت عامل التقادم من جانب وضعف الدولة العثمانية من جانب آخر ، وشملت هذه الامتيازات إعفاءات كثيرة لعل أخطرها السماح للأوربيين بممارسة نشاطاتهم الدينية وخصوصاً فى بلاد الشام ، وأصبح التسابق على أشده بين الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت وامتد الأمر نحو السماح ببناء العديد من المؤسسات التعليمية والتتفيفية ، وحينما أدركت الدولة العثمانية خطورة الموقف كان الزمن قد مضى وكان الرجل المريض قد تدهورت حالته وتكالبت عليه المطامع الأوروبية التى أودت بحياته فى النهاية . وفى ظل الامتيازات التى قدمها العثمانيون للأجانب عموماً ، لعب اليهود دوراً متزايداً لا يتناسب مع قلة عددهم فلم يزد عددهم فى فلسطين عموماً خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني على عشرة آلاف نسمة وكانوا ثلاثة أمثال هذا العدد فى بلاد الشام كله^{٦٠} .

وبسبب سياسة التسامح التى انتهجها العثمانيون تزايد هذا العدد فى أواخر القرن التاسع عشر حتى بلغ حوالى المائة ألف ، وأسسوا مدارس لتعليم العبرية وأقاموا مستوطنات فى حيفا وسيطروا على تجارة صفد ودمشق وقاموا بدور بارز فى الحياة الاقتصادية فى حلب وبيروت وعكا وحيفا .

لقد أوجدت هذه الكثرة العددية العديد من المسارب إلى القدس حيث نمت المؤسسات التعليمية لليهود بشكل ملحوظ ، وعندما أدركت الدولة العثمانية خطورة الامتيازات التى فتحت الباب على مصراعيه لم تستطع أن تحول دون نمو هذه الامتيازات التى أصبحت بمثابة موانئ مذلّة للعثمانيين حتى سقطت دولتهم عقب الحرب العالمية الأولى .

وعموماً يمكن أن نستخلص عدة نتائج من هذه الدراسة :

أولاً : لقد بقيت القدس منذ أن فتحها المسلمون مدينة إسلامية حيث ذابت فيها كل الثقافات الأخرى ، وظلت الهوية الإسلامية هى الأساس الذى حفظ للقدس ملامحها الخاصة

^{٦٠} د. عبد العزيز محمد الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج٣ ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٧٤٦ .

التي بقيت عبر تاريخها الطويل دليلا أكيدا على أن عودة القدس ليس مطلباً قومياً فقط وإنما هي ضرورة إسلامية بالدرجة الأولى .

ثانياً : إن القراءة العلمية لمدينة القدس تشهد على أن التسامح الدينى فى ظل الإدارة الإسلامية لم يكن شيئاً استثنائياً أو طارئاً وإنما كان بمثابة استراتيجية ثابتة حكمتها الشريعة الإسلامية التى أقرت كافة الحقوق التى كفلت لأهل الذمة حرية ممارسة عقائدهم وأنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية .

ثالثاً : إن القراءة الدقيقة للتاريخ الإنسانى عموماً تؤكد أن المسيحيين واليهود فى بيت المقدس قد توفرت لهما كل الحقوق التى لم تتوفر للأقليات الدينية فى أوروبا ، فبينما كان اليهود والمسلمون فى الأندلس الإسلامية يساقون إلى الموت فرادى وجماعات كان المسيحيون واليهود فى بيت المقدس يعيشون كمواطنين لهم كل حقوق المواطنة ، وبينما كانت الكنيسة الكاثوليكية تطارد العلماء وتتهمهم بالهرطقة خلال العصور الوسطى الأوروبية كانت مدينة القدس الإسلامية تحتضن العلماء من اليهود والنصارى وتقدم لهم كل الإمكانيات المادية والأدبية ، وهى حقيقة لم يغفلها الرحالة سواء من اليهود أو النصارى .

رابعاً : لقد أسهمت مدينة القدس بقدر هائل فى نمو الحضارة الإسلامية وازدهارها من خلال الحركة العلمية التى شهدتها المدينة المقدسة ، وكانت المدارس والمعاهد والمكتبات مقومات أساسية لدفع الحركة العلمية التى نجم عنها أجيال من العلماء يصعب حصرهم فى شتى مجالات المعرفة ، مما طبع المدينة بطابع إسلامى جعلها صورة مكررة فى القاهرة ودمشق وبغداد .

خامساً : لعل فى مقدمة أولويات العمل الإسلامى تكاتف المسلمين فى شتى أنحاء المعمورة من خلال حركة منظمة ودقيقة تجمع الجهود الشعبية والحكومية وتتخذ من السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية وكافة السبل وسائل لإنقاذ المدينة المقدسة من براثن المحتل الغاشم الذى يبذل كل الجهود لطمس المعالم الإسلامية كحجة قوية لتبرير احتلاله .

المصادر والمراجع

- (١) ابن غانم المقدس (الشيخ نور الدين على) ، مختصر الأعلام فى فضائل القدس والشام ، مخطوط بدار الكتب المصرية .
- (٢) المقرئى (نقى الدين أحمد بن على) ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ط ١ - ٣ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة
١٩٧١ .
- (٣) السيوطى (أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد بن على) ، مخطوط بدار الكتب المصرية .
- (٤) ابن الأثير (عز الدين أبى الحسن على) ، الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ١٢ ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- (٥) ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى) ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ١ - ٤ ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ،
١٩٧٤ .
- (٦) ابن بطوطة (محمد بن إبراهيم الطنجى) ، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ج ١ ،
٢ ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- (٧) ابن جبير (أبى الحسن محمد بن أحمد) ، رحلة ابن جبير ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، تحقيق حسين نصار .
- (٨) ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن محمد بن على) ، أبناء الغمر بأبناء العمر ، ج ١ ، ٢ ،
القاهرة ، ١٩٧١ ، تحقيق د.
حسن حبشى .
- (٩) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام
العرب والعجم ومن
عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، بدون تاريخ .
- (١٠) ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد العلانى) ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ط ٩ ، ١٣ هـ ،
القاهرة .
- (١١) ابن شداد (القاضى بهاء الدين) ، سيرة صلاح الدين الأيوبي المصممة بالنوادر السلطانية والمحاسن
اليوسفية .
- (١٢) القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، ١٩٦٠ .

- (١٣) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، بغداد ، ١٩٥٨ .
- (١٤) ابن كثير (عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن كثير القرش الدمشقي) ، البداية والنهاية في التاريخ ، جـ ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، القاهرة ١٩٣٩ .
- (١٥) أحمد رمضان (دكتور) ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- (١٦) أحمد عبد الرازق أحمد (دكتور) ، دراسات في المصادر المملوكية المبكرة ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
- (١٧) إسحاق الحسيني ، مكانة بيت المقدس في الإسلام ، مطبوعات مجمع للبحوث الإسلامية ، المؤتمر الرابع ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- (١٨) أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن أيوب) ، تقويم البلدان ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- (١٩) السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد) ، تاريخ الخلفاء ، ط٤ ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحليم .
- (٢٠) أحمد دراج ، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- (٢١) أحمد دارج ، الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- (٢٢) أحمد سامح الخالدي ، أهل العلم بين مصر وفلسطين ، القدس ، ١٩٤٧ .
- (٢٣) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) ، أضواء جديدة عن مدينة القدس ، بحث منشور ضمن مطبوعات مؤتمر بلاد الشام ، ١٩٨٠ .
- (٢٤) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) ، الأيوبيون المماليك في مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- (٢٥) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) ، اليهود في العصور الوسطى ، دراسة مقدمة للمؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية ، المؤتمر الرابع ، ١٩٦٨ .
- (٢٦) عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- (٢٧) عبد الرحمن سيد حمودة ، القدس في عهد المماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ١٩٧٩ ، مكتبة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر .
- (٢٨) علي السيد علي (دكتور) ، القدس في العصر المملوكي ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

(٢٩) فتحية النبراوى (دكتور) ، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

(٣٠) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي .

(٣١) محمود العابدى ، قدسنا ، مطبوعات جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٣٢) ميخائيل مكى اسكندر ، القدس عبر التاريخ ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٣٣) ظفر الإسلام خان ، تاريخ فلسطين ، بيروت ، ١٩٧٩ .

(٣٤) نقولا زيادة (دكتور) ، رواد الشرق العرب فى العصور الوسطى ، القدس ، ١٩٤٣ .

(٣٥) يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم و د. محمد خليفة ، القاهرة ، ١٩٨١ .